الصفة الأمثل

عَلاء الدِّين حسَن
aladin.hasan@gmail.com

الصِّفة الأمثل الَّتي تجعلك مُشرَّفاً في الحياة هي صفة العِلم والأدب .. بالعِلم والأدب تشرُف، وما مِن صفة هي أرفع مِن هذه الصِّفة " لأنَّ الإنسان إذا لم يتفقَّه ربَّما شرَّق وهو يريد الغرب، وربَّما غرَّب وهو يريد الشَّرق.

مَا الفَخرُ إلاّ لأَهلِ العِلمِ أنَّهمُ
علَى الهدَى لِمَن استَهدَى أَدلَّاءُ [١]

العِلم: أنفسُ ما طُلب، وأغلى ما كُسب، هو التَّاج الَّذي يميّز العالِم عن الجاهل، ويميّز الأعمى عن البصير، وهو الَّذي دعت إليه الشَّرائع السَّماويَّة، وجعلته مقدَّساً، وجعلت حامله مبجَّلاً" به استطاعت أمم أن تقود العالَم، وبه استطاعت أن تصل إلى مواقع لم تكن تحلم بالوصول إليها..

بالعِلم تزيد صلة العبد بربِّه، وبالعِلم تقوى معرفة العبد بخالقه..

والعِلم المعتبَر هو العِلم الباعث على العمل، وأساس العِلم هو العمل[٢]. ولا عمل مقبول مِن غير إتقان: ((إنَّ الله يحبُّ أَحدَكم إذَا عمِلَ عَملاً أَن يتقنَه))[٣].

ولا تضعف عزيمة أمَّة مِن الأمم إلاّ يوم تصبح في واد، ومناهج العلوم في واد آخر. و"العامل على غير عِلم يفسد أكثر ممَّا يصلح.." [٤].

ورَجل العِلم: (صادق، ذكي، أمين، مجتهد، صبور، متواضع).. هو في عمله

فنَّـان، ومعيـارُهُ الخلقـيُّ معيـارٌ رفيـع. وفي الحـديث: ((اغـدُ عَالِمـاً، أَو مُتعلِّمـاً، أَو مُسـتمعاً، أَو محبَّـاً، وَلاَ تَكـنِ الخَـامسَ" فَتهلَك))[٥].

والخامسُ، هو المعرض عن العِلم..

ومـمَّا ينبغـي ذكـره أنَّ على المـتعلِّم وظائف كثيرة، منها: تزكيـة الـنَّفس، وتنقيـة القلب... ومِن وظائف المتعلِّم: السُّؤال عمَّـا لا يعرف.

سُـئل (ابنُ عبَّاس)[٦] : بـمَ نلت العِلـم ؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول.

ومِن وظائف المتعلِّم: أن يقوم بتعليم مـا قد تعلَّم. جاء في الحـديث المتـواتر[٧]: ((مَـن علِمَ عِلماً فَكتمَه، ألجمَـهُ الله يَـومَ القيَامَـة...))[٨].

وروي عـن السَّـيِّد المسـيح ﴿ عليـهِ السَّلام ﴾ قوله: // مَن علِـمَ وعمِـلَ وعلَّـم، فَذاكَ يُدعَى عَظيماً فِي مَلكوتِ السَّماء //.

ومِن وظائف المتعلِّم: أن يحـترم معلِّمـه. ولي في ذلك قصيدة [٩] أقول فيهـا:

إنَّ المعَـلِّمَ نهجُهُ سِـرُّ العَمَل
وَهبَ الحيَاةَ ضِياءَ قَلبٍ وَالـمُقَـلْ
مَا غَابَ يَوماً حِلمُهُ عَن رَاغِبٍ
يَسعَى لنَيـلِ المبتغَى خَيرِ الأَمَـلْ

ومِن مهام المعلِّم: أن يكـون ميسِّـراً لا متعنِّتاً. قال عليه الصَّلاة وَالسَّـلام: ((إنَّ الله لـمْ يَبعثني معنِّتاً وَلاَ مُتعنِّتاً، وَلكنْ بَعثني مُعلِّماً ميسِّراً))[١٠].

وأمير الشُّـعراء (أحمد شـوقي) – رَحِمـه الله – مِـن أوائـل مَـن اهتمّـوا بـالمعلِّم في أشـعارهم، فلـه قصـيدة خـصَّ بهـا المعلِّـم، وتحدَّث فيها عـن التَّعليـم، وواجـب المعلِّـم، وضـرورة أن يحترمـه التَّلاميـذ، وفيهـا يضـع المعلِّم في منْزلـة عاليـة.. إنَّهـا منْزلـة الرُّسـل والأنبيـاء الَّـذين بعـثهم الله لتعلـيم البشـر وهدايتهم. يقول (شوقي) في مطلع قصيدته:

قُـمْ للمُعـلِّمِ وفِّـهِ التَّبجيـلا كَادَ المعلِّمُ أَن يَكـونَ رَسولا
أعَلِمتَ أشرفَ أَو أجلَّ مِن الَّذي
يَبني وَيُنشئ أنفُسـاً وَعُقولا؟
سُـبحَانكَ اللَّهُـمَّ خيرَ معلِّـمٍ
علَّمـتَ بالقَلمِ القُرونَ الأُولى
أخْرجتَ هَذا العَقلَ مِـن ظُلمَاتهِ
وَهَديتَهُ النُّـورَ المبينَ سَـبيلا
أَرسَلتَ بالتَّـورَاةِ مُوسَى مُرشِداً،
وَابنَ البَتـولِ، فَعلَّمَ الإنجيـلا
وَفَجـرتَ يَنبوعَ البَيان محمَّـداً
فَسقَى الحَديثَ وَنَاولَ التَّنْزيلا

ثـمَّ يحـذِّر مِـن إهمـال المعلِّـم في أداء رسالته، حتَّى لا يصاب الـنَّشء في أخلاقهـم، فيقول:

وَإذَا المعلِّمُ لَمْ يَكـنْ عَدلاً مشَتْ
روحُ العَدالةِ فِي الشَّبابِ ضَـئيلا

وضغوط الحياة اليوميَّة، وما يعانيه المعلِّم، جعلت منه مادَّة ثريَّة لعدد مِن الشُّعراء، الَّذين عبَّروا عن هذه المعاناة، وعاشها بعضهم ممَّن جمعوا بين التَّدريس والأدب والشِّعر.

ومِن هؤلاء: الشَّاعر الفلسطينيّ (إبراهيم طوقان)، الَّذي يُعَدُّ مِن أكثر الشُّعراء الَّذين جسَّدوا هموم المعلِّم" حيث عمل بالتَّدريس، وعاش مهنة التَّعليم بما لها وما عليها، وأدرك ما يواجهه المعلِّم مِن صعوبات ومشكلات" فنتج عن هذا الإحساس أن نظَّم قصيدته اللّاميَّة المرحة الَّتي تحكي معاناة المعلِّم، وهو يعارض فيها قصيدة (أحمد شوقي)، الَّذي دعا إلى تبجيل المعلِّم. يقول (طوقان) في مطلع قصيدته:

شَوقي يَقولُ وَمَا درَى بمصَابِنا قُمْ للمعلِّم وَفِّهِ التَّبجيلا

لَو جرَّبَ التَّعليمَ شَوقي سَاعةً لقضَى الحَيَاةَ شَقاوةً وَخُمُولا

وَيَكادُ يَقتُلني الأميرُ بقَولِهِ كَادَ المعلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا

يَا مَن يُريدُ الانتحَارَ وَجدتَه إنَّ المعلِّمَ لاَ يَعيشُ طَويلا

وبالفعل كان (طوقان) صادقاً" إذ إنَّه لم يعش طويلاً، ومات في ريعان شبابه.

وَاجبَات عَديدَة:

ومِن واجبات المعلِّم الأمانة: الأمانة في الإعداد، والأمانة في الأداء، والأمانة في العطاء، وفي الوقت، والأمانة في النَّقل..

فإنْ كنتَ مدرِّساً لمادَّة اللُّغة العربيَّة، أو كنت مدرِّساً لمادَّة التَّربية الدِّينيَّة، أو كنت مدرِّساً لمادَّة الفيزياء، أو الكيمياء، أو الرِّياضيَّات، أو الجغرافية، أو العلوم، أو الثَّقافة العامَّة، أو التَّاريخ .. إنْ كنت خطيباً، أو إنْ كنت كاتباً أو أديباً، أو إنْ كنت أباً، أو إنْ كنت ناصحاً، أو غير ذلك..

حيثما كنت، وأيَّاً كان موضعك، ينبغي أن تكون متثبِّتاً مِن هذا الَّذي توجِّه به، وتدعو إليه. أن تكون متثبِّتاً مِن المادَّة الَّتي تُدرِّسها، أن تكون متثبِّتاً مِن الآداب الَّتي توجِّه إليها، أن تكون ملمَّاً بالمادَّة الَّتي تعلِّمها، ملمَّاً مِن حيث المعرفة. وقد قيل: تعلَّم، قبل أن تتكلَّم، حتَّى لا تتألَّم. ولله درُّ (الشَّافعيّ)" حيث قال:

تَعلَّمْ ، فَليسَ المرءُ يُولَد عالِماً وَلَيسَ أخُو عِلمٍ كَمَن هوَ جَاهِلُ

وَإنَّ صَغيرَ القَومِ إنْ كَانَ عَالِماً كَبيرٌ، إذَا التفَّتْ عَليهِ المحافِلُ

فعليك أن تكون متعلِّماً مِن حيث المعرفة، وعليك أن تكون متثبِّتاً مِن حيث الإتقان، وعليك أن تكون مؤتمناً عند النَّقل، ولا تقُل شيئاً بغير تفكير، ولا تعمل عملاً مِن غير تدقيق وتدبير..

والمعلّم ينبغي أن يكون حريصاً على طلاّبه، أن يكون رفيقاً بهم، أن يكون لطيفاً معهم. وكلُّ واحد منَّا معلّم في مجال مِن المجالات، ممَّا ينبغي أن نتحلّى بالرِّفق.

والمعلّمون .. هم النُّجوم السَّاطعة، والكواكب اللاّمعة، في سماء العلوم والمعارف النَّافعة.. هم المصابيح المتلألئة، والشُّموع الوضَّاءة، الّتي تحترق" لتضيء الطّريق للأجيال الصَّاعدة والنَّاشئة..

ولكن ممَّا نعاني منه: الانفصام بين العِلم والسُّلوك في بعض الأحيان، فإذا كان المعلّم قد ارتكب عدداً مِن المخالفات الظّاهرة، في ملبسه وهيئته، وكلامه ومعاملته،

فما قيمة العِلم الّذي يُحمَل عنه؟ وكيف يؤثّر في طلاّبه وزملائه؟..

ولا تكونُ المدرسةُ دارَ تربيةٍ وتعليم، إلاّ عندما تربّي إنساناً، وتعلّمه كيف يبحثُ عن الحقيقة، وكيف يستخدمُ عِلْمَه في عمله.

ومع عِظَم التَّشريف، يعظم التَّكليف.. فلقد ائتمنتِ الأمَّة المعلّمين على أعزِّ ما تملك.. على عقول فلذات أكبادها، وأفكار ثمرات فؤادها.. ممَّا ينبغي أن يربُّوا الأجيال على قيم التَّسامح، والرِّفق، والأصالة..

يتحدَّث (ابن سينا) – أحد أئمَّة الفكر والتَّربية في القرن الرَّابع الهجريّ– ، يتحدَّث عن صفات المعلّم، فيقول:

«ينبغي أن يكون مؤدِّب الصَّبيِّ عاقلاً ذا دِين، بصيراً برياضة الأخلاق، وقوراً، رزيناً، بعيداً عن الخفَّة والسُّخف، لبيباً، قليل التَّبذُّل والاسترسال بحضرة الصَّبي، ذا مروءة ونظافة ونزاهة. فالمؤدِّب قدوة يقتدَى به».

ولعلَّ في الوصيَّة الّتي بعث بها الخليفة (هارون الرَّشيد) إلى (الكسائيّ) مؤدِّب ابنه، ما يلقي الضّوء على طبيعة المنهج التَّربويّ المطلوب مِن المعلّم تجاه المتعلّم، إذ يقول: «اقرئه القرآن، وعرِّفه الآثار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السَّنن، وبصِّره بمواقع الكلام، وبدئه، وامنعه مِن الضَّحك، إلاّ في أوقاته.. ».

مَعالِم لاَ بدَّ منهَا:

" ولن يصلَ أيُّ إنسان إلى مرتبةِ المعلّمِ الجيِّد، إلاّ إذا كانت لديه مشاعرُ الدِّفءِ والحبِّ تجاهَ تلاميذه"[١١].

ومِن العواملِ الّتي تجعلُ المعلّمَ محبوباً عند تلاميذه:

أوَّلاً: إظهارُ روحِ الدُّعابة والمرح، فالابتسامة خيرُ رسالة، وأنجعُ لقاء بين المعلّم وطلاّبه: ((تبسُّمكَ فِي وَجهِ أَخيكَ صَدَقة)) [١٢].

فالابتسامةُ تجعل الطّالبَ يُقبل على المدرسة والدَّرس برغبة وشوق، فضلاً عن كونها تبدِّد المخاوف مِن نفسه..

ثانياً: التَّشجيعُ على المواقف الحسنة، والإجابات الصَّحيحة، وإذكاءُ روحِ التَّنافس

بين الطُّلاّب" فالطُّلاّبُ طاقاتٌ كامنة تنتظرُ مَن يستثمرُها، وأذهانٌ هائمة تنتظرُ مَن يوجّهها.

و" مِن أسمى فنون المعلّم: أن يوقظَ روح الحماسة لدى الطُّلبة، للتَّعبير عن أفكارهم وآرائهم، بطرق إبداعيَّة " (١٣).

وقد أثبتت التَّجاربُ أنَّ التَّشجيعَ في كلِّ الأحوال ناجع، ويؤثّر تأثيراً إيجابيًّا على الطُّالب، شريطةَ أن يكونَ في وقته المناسب، وبقدرِ الحاجة إليه، وإنَّ كلمة تقدير مِن أستاذ له قدر في شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه نابغة مِن نوابغ العِلم.

ثالثاً: التَّغاضي عن هفوات الطُّلاّب الصَّغيرة، فالمعلّم الودود لا يحاسبُ طلاّبَه على كلِّ صغيرة وكبيرة، ولكنَّه يتركُ جزءاً لطفولتهم النَّامية، فتارةً يتجاهلُ إزاء تصرّف غير لائقٍ مِن طالب، فيناديه في الفسحة، ويتكلّم معه باحترام، عندئذ سيتأثّر الطُّالبُ ويندمُ على ما قد فعل، ويبتعدُ عن كلِّ تصرُّف غير لائق..

رابعاً: العدل بين الطُّلاّب" فلا يميِّزُ بين طالب وآخر، ويشيعُ المحبَّةَ والألفةَ بينهم، ويشجّعُهم على الإيثارِ والتَّعاون، ونبذِ الأثرة.. فالطُّلاّبُ على مقاعد التَّعلّم تتملّكُهم حساسيةٌ مفرطةٌ تجاهَ المعلّمين، فهم يحاسبونهم على الابتسامات والنَّظرات.

وإذا أعطى المعلّمُ الفرصةَ لطالب مرَّتين على التَّوالي للإجابة عن سؤال ما، ولم يُعطِ الآخر، ضاقَ صدرُ الآخر، وأسرعَ يبوحُ بخلجاتِ نفسه الرَّقيقة معاتباً إيَّاه..

خامساً: الاهتمام بشؤون الطُّلاّب وعوالمهم، والتَّحاور معهم..

ومِن أبرز فوائد الحوار بين المعلّم والطُّالب:

– تعزيزُ ثقةِ الطُّالب بنفسه عبر إيجادِ الفرصة المناسبة للتَّعبير عن أفكاره، والتَّخلّص مِن الخوف مِن مواجهة الآخرين.

– تنميةُ روابطِ المحبَّة مع المعلّم، وتعويد الطُّالب حلّ المشكلات بطرق جديدة.

– شدُّ الانتباه والتَّشويق، واحترامُ رأي الطَّرف الآخر.

إدرَاكُ القيَم:

وفي ظلِّ فهم قيمة العِلم، وإدراك حقيقته، وفروعه، نبغ العديد مِن العلماء، فاخترع (الخوارزميُّ) علم الجبر ، واختصَّ (ابن حيَّان) بأسرار الكيمياء، ونمت المباحث الرُّوحيَّة والنَّفسيَّة والفلسفيَّة عند (ابن سينا)، و(الغزالي)، و(ابن رشد)، وغيرهم، وغيرهم..

ومِن لطائف المعاني أنَّ التَّعلّم يرفع مِن قدر المتعلّم، إنساناً كان أم حيواناً، حتَّى رأينا الكلب المعلّم يؤكَل ما يصيده" لأنَّه لم يصده

لنفسه" بل لصاحبه الّذي علّمه، فما بالنا بالإنسان إذا تعلّم ؟ (١٤) .

قال تعَالى: **(اِقرأ باسمِ ربِّك الّذي خَلَق ۞ خَلقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَق ۞ اِقرأ وَرَبُّكَ الأَكرَم ۞ الّذي علّمَ بالقَلَم ۞ علّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعلَم)** العلَق: ١ – ٥.

والقراءةُ سبيلُ الرُّقيّ: ((اقرَأ وَارقَ))..

ومَن يقرأ بتذوُّق، يكتُب بتفَوُّق..

وتمام العقل بالعِلم، والعقل هو الوسيلة الوحيدة الّتي ترتقي بالإنسان، وترفعه. وفي سياق المقارنة بين أهميَّة العقل والشَّجاعة، وأثرهما في الإنسان يؤكّد (المتنبِّي) على أسبقيَّة الرَّأي على الشَّجاعة. يقول:

الرَّأيُ قَبلَ شَجاعةِ الشُّجعَان
هوَ أوَّل، وَهيَ المحلُّ الثَّاني
فَإذَا همَا اجتَمعَا بِنفسٍ حرَّةٍ
بَلغتْ مِن العَليَا كُلَّ مَكان

وأجمع العلماء على أنَّ سائر علوم الحياة، مِن: طبّ، وفلك، وهندسة.. مِن الفروض الكفائيَّة، وما لا يتمُّ الواجب إلاّ به، فهو واجب.

ولقد اشتهر بين النَّاس قولُهم: / اطلبوا العِلم ولو في الصِّين /. على أن يكون العِلم المطلوب ثابتاً بالبرهان، وأن يكون نافعاً، متلازماً مع البُعد التَّربوي❑

الهوامش:

(١) ديوان عليّ بن أبي طالب، دار كرم بدمشق، دون تاريخ، ص ٥ .

(٢) مِن محاضرة لكاتب هذا البحث، قُدِّمت بالمركز الثَّقافيِّ في (الحسكة)، بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣٠ـ.

(٣) الجامع الصَّغير ١٨٦١ .

(٤) منسوب لـ : عمر بن عبد العزيز .

(٥) معجم الزَّوائد : ١ / ١٣٢ .

(٦) ابن عبَّاس هو ابن عمّ رسول الله، وُلد في (مكّة)، ونقل الأحاديث. توفّي في (الطّائف) عن واحد وسبعين سنة.

(٧) الحديث المتواتر يرويه جمع يستحيل اتّفاقهم على الكذب، عن جمع مثلهم..

(٨) أخرجه (ابن حِبَّان) في (صحيحه) برقم ٩٦ ..

(٩) نشرتها في صحيفة (بناة الأجيال)، ١ نيسان ٢٠٠٤، العدد ١٥٣ .

(١٠) رواه مسلم، ح رقم ١٤٧٨ .

(١١) نصائح للمعلّمين، تشارلز ماكجوير، ص : ١١٧ .

(١٢) ابن حبَّان ، ج٢ – ص : ٢٢١ .

(١٣) أفضل النَّصائح للمعلّمين، ديانا أبيتز، ص : ١١٧ .

(١٤) انظر كتابنا: قضايا فكريَّة معاصرة، الطّبعة الأولى، دمشق ١٤٢٥ هـ، ص ٣٨ .